

الإسلام دين الإتيان (*)

الإسلام دين الإتيان ، يدعو إليه ، وبه يتميز ، حيث جعله الإسلام من وجوه القرب إلى الله (عز وجل)، فكل عمل يقوم به المسلم إذا أخلص فيه لله تعالى وأتقنه وقصد به النفع لغيره فهو من باب العبودية والطاعة لله (عز وجل)، واعتبار العمل عبادة وقربى لله تعالى من أعظم الدوافع لبذل الجهد في إتقانه وإخراجه على الوجه الأكمل.

وإذا كان الإتيان من أهم أسباب القرب من الله عز وجل والقبول في الآخرة ، فهو كذلك من أهم أسباب التفوق والتقدم في الدنيا ، ولو نظرنا إلى الواقع لوجدنا أن سبب تراجع المسلمين في كثير من مجالات الحياة هو فقدان روح الإخلاص والإتيان في العمل ، فنحن نملك أكثر ما يملكه الغرب والشرق من خيرات وطاقات وقدرات،

(* د/ عمرو محمد عبدالغفار – باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.



ولكنه التفريط في الإتيان وانتشار الفوضى والتكاسل .
وقد فرق كثير من أهل العلم بين الإحسان والإتيان،
فالإتيان هو إتمام الأركان على الوجه المطلوب واستفراغ
الوسع في إتمام العمل وفق شروط العمل وأصول الأداء،
أما الإحسان فيشمل ذلك وزيادة، وهو أن يكون الباعث
والدافع الأساسي على هذا الإتيان مراقبة الله عز وجل له،
والحياء من نظر الله تعالى إليه ، وطلب الأجر منه ، أما
الفوائد الدنيوية فتأتي تبعاً وليست هي الأصل في الإتيان
والتجويد، فالإحسان عند المسلم هو الإتيان وزيادة ، أما عند
غير المسلم فهو الإتيان وحده.

ومن ثم فإن العاَمِلَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ أَنْ يَتَّقِنَ عَمَلَهُ وَأَنْ
يَحْسِنَ فِيهِ قَدَرَ طَاقَتِهِ ، ولقد خلق الله (عز وجل) الخلق،
وجعل ما على الأرض من زخارف الدنيا من إنسان وحيوان
ونبات ومباهج ومفاتيح زينة لها ولأهلها، ليبتلّهم ويختبرهم،
ليظهر المتقن المحسن في عمله من المفسد المسيء

فيجازي المحسن بالثواب ، والمسيء بالعقاب ، قال تعالى :
{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا } [الكهف: ٧].

وقد أمر الله (عز وجل) عباده بالعمل في أمور الدنيا
والدين، وأعلمهم أن عملهم سوف يُرى ، قال تعالى: {وَقُلْ
اعْمَلُوا فَيَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة:
١٠٥]، ففيه تحذير من التقصير وترك الإتيان لأن كون عملهم
بمراى من الله إنما يبعث ذلك على الإتيان والتحسين
وذلك تذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع
الكائنات، وهذا ما أكدّه النبي (صلى الله عليه وسلم) في
بيان الإحسان حيث قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ
تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (متفق عليه).

والإتيان صفة من صفات الله (عز وجل)، وهو سبحانه
يحب من خلقه من يتحلى بشيء من صفاته ، قال ابن القيم



في عدة الصابرين: والله تعالى يحبُّ أسماءه وصفاته، ويحب مقتضى صفاته، وظهور آثارها على العبد، فإنه جميل يحب الجمال، عفوٌ يحب أهل العفو، كريمٌ يحب أهل الكرم، عليمٌ يحب أهل العلم، وثُرٌ يحب الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبورٌ يحب الصابرين، محسن يحب المحسنين، شكورٌ يحب الشاكرين. فإذا كان (سبحانه) يحبُّ المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف.

والإتقان ظاهر في جميع مخلوقات الله (عز وجل)، قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل: ٨٨]، وترى الجبال تظنها واقفة مستقرة، وهي تسير سيرًا حثيثًا كسير السحاب الذي تسيّره الرياح، وهذا من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقنه. إن الله خبير بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم على ذلك.

وقال تعالى متحدثًا عن إتقانه وإبداعه في خلق الإنسان: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} [السجدة: ٧] فأحسنه وجوده وأتقنه، وجعله بديعًا في هيئته ووظيفته على حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى، وكذلك الحال في ملكوت السموات والأرض، يتجلى فيها إتقان الله (عز وجل) فلو بحث الباحث المدقق عن خلل فيها ما وجد {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} [الملك: ٣].

وقد أمر الله تعالى عباده بالإحسان في أعمالهم، وأحب ذلك منهم، فقال تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، هذا الإحسان هو الإتقان والإحكام.

وجاءت توجيهات النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) لأُمَّته بالإتقان في كل مناحي الحياة، فعن عائشة (رضى الله عنها)، أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ) (سنن البيهقي)، فقوله (عَمَلًا



أَنْ يُتَّقَنَهُ) النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فالله (سبحانه وتعالى) يحب المؤمن المتقن في جميع أحواله وأعماله.

كما أن الله تعالى كتب الإحسان في كل شيء ، فأمر به في ذبح البهائم مع أنه قد يبدو عملاً عادياً ينتهي بمجرد موت الحيوان، فعن أبي يعلى شَدَّاد بن أوسٍ (رضي الله عنه)، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلْيُجِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) (رواه مسلم). يعني أوجب عليكم الإحسان والإتقان في كل شيء من أعمالكم، وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء بحسبه .

وكتب الإحسان والإتقان في تكفين الموتى يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ) أي : ينظفه ويعطره ليختر أنظف الثياب وأجودها وهذا كله من مقتضيات الإتقان ، وفي حفر القبر ودفن

الموتى يأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإتقان ، فعن
عاصم بن كليب عن أبيه قال: شهدت مع أبي جنازة شهدها
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنا غلامٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ،
فانتهى بالجنازة إلى القبر ولم يمكن لها ، قال: فجعل رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (سَوِّوا لِحَدَّ هَذَا). حَتَّى ظَنَّ
النَّاسُ أَنَّهُ سَنَّةٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: (أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ
الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ
يُحْسِنَ) (سنن البيهقي).

وفي العبادات بأنواعها جاء الأمر النبوي الكريم
بإتقانها وإتمامها، ففي مشروعية الأذان يتجلى الإتقان
والإحسان وأثره في تقديم الكفاءات ، وإقامة الرجل
المناسب فيما يناسبه، فقد كان الأذان رؤياً لعبد الله بن زيد
الأنصاري ثم وكل النبي (صلى الله عليه وسلم) بلالاً به لما
كان يتمتع به من مقومات تجعل آذانه أُنْقَنَ وَأَجُودَ، فقال له
رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَالْقِ عَلَيهِ



مَا رَأَيْتُ؛ فَلْيُوَدِّنْ بِهِ فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ) (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ).
وفي الوضوء يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ تَوَضَّأَ
فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ) (رواه مسلم).

وفي الطهارة والنظافة المندوبة يوم الجمعة يقول
النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
فَأَحْسَنَ غُسْلَهُ وَتَطَهَّرَ فَأَحْسَنَ طُهُورَهُ وَلَبَسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ
وَمَسَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ طَيِّبِ أَهْلِهِ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ وَلَمْ يَلْغُ
وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى)
(متفق عليه)، فترتب الأجر الجزيل والثواب العظيم على
الإتقان والإحسان وليس على مطلق العمل.

وفي الصلاة وإتقانها يقول تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}
[البقرة: ٤٣] فعبّر بلفظ الإقامة دون الأداء ؛ لأنه يتضمن
الإتقان والإحسان والإتمام، وعلى هذه الإقامة بهذه الصفة
يترتب الأجر الجزيل، ويتحصل المسلم على ثمرات الصلاة
المرجوة منها بحول الله.

أما حفظ القرآن فإن الإتيان هو مناط التقديم والتفضيل ، فكلما كان المسلم متقناً في هذا الباب كان أعلى مقاماً، قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) (متفق عليه).

أما الإتيان في الأعمال الدنيوية فهو ظاهر في ثنايا النصوص الشرعية التي اهتمت بعمارة الأرض والسعي فيها وطلب الخير من بين جنباتها، فالإتيان في الإسلام ليس خاصاً بالشعائر التعبدية، ولا بالعلوم الشرعية، وإنما أيضاً يمتد ليشمل الأعمال والعلوم الدنيوية، لأن الدين بها يقوم، وعليها يؤسس.

ومن مجالات الإتيان الدنيوية: الإتيان في البناء، وقد ذكر الله (عز وجل) أعظم بناء على وجه الأرض (سد يأجوج ومأجوج)، وكيف أنه كان في تمام الغاية من الأحكام والإتيان الذي ترتب عليه حفظ البشرية من ويلات يأجوج



ومأجوج، قال تعالى: { آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا } [الكهف: ٩٦]، { آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ } قطع الحديد ، ثم اجعلوا بعضها فوق بعض { حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ } بين الجبلين { قَالَ انْفُخُوا } وأوقدوا النيران وهاتوا المنافخ ، حتى إذا جعله ناراً لتصهر هذه القطع المنفصلة، فتلتحم وتصير قطعة واحدة { قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا } أي: النحاس المذاب، لتكون سبيكة من الحديد والنحاس غير قابلة للاختراق، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم. فلو قيل ما هو أنفع ببيان في العالم، كان الجواب هو سد ذي القرنين، لأنه لو لم يكن موجوداً لخرجوا على الناس وأفسدوا الدنيا. ولقد اهتم النبي (صلى الله عليه وسلم) بمسألة الإتيان في بناء المسجد النبوي كما جاء في حديث طلق بن علي (رضي الله عنه) قال: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

وَأَصْحَابُهُ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، فَكَانَهُ لَمْ يُعْجِبَهُ عَمَلُهُمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُ
عَمَلَهُمْ أَخَذْتُ أُحْذِقُ الْمِسْحَةَ (الفأس) فَخَلَطْتُ بِهَا الطِّينَ،
فَكَانَهُ أَعْجَبَهُ أَخْذِي الْمِسْحَةَ وَعَمَلِي، فَقَالَ: (دَعُوا الْحَنْفِيَّ
وَالطِّينَ، فَإِنَّهُ أَضْبَطُكُمْ لِلطِّينِ) (رواه ابن حبان).

وجدير بالذكر أن العمل بلا إتقان مردود على صاحبه،
فلا أجر له في الدنيا يستحقه على عمله غير المتقن، ولا قبول
له عند الله (عز وجل)، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) في
حديث المسيء صلواته: أَنَّهُ جَاءَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ
(صلى الله عليه وسلم)، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَردَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَالَ:
(ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) فَرَجَعَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى
النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم)، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
(متفق عليه).

وجاءت شريعة الإسلام بتضمين غير المتقن ما أفسده ،
ذلك ليعلم المسلمون أن الإتقان حتى في المهن والحرف ،
وليس فقط في الأعمال والمصنوعات والبناء، فغير المتقن



يضمن ما أتلفه وأفسده بتعديه وجهله المترتب على عدم إتقانه، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعَلِّمْ مِنْهُ طِبُّ قَبْلُ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ) (رواه أبو داود). وقال ابنُ المُنْذِرِ: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الطَّيِّبَ إِذَا لَمْ يَتَّعَدَّ لَمْ يَضْمَنْ، بَأَنَّ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحِذْقِ فِي صَنْعَتِهِ (حواشي تحفة المنهاج بشرح المنهاج). وقال ابن قدامة: وَلَا ضَمَانَ عَلَى حَبَّامٍ، وَلَا حَتَّانٍ، وَلَا مُتَطَبِّبٍ إِذَا عُرِفَ مِنْهُمْ حِذْقُ الصَّنْعَةِ، وَلَمْ تَجُنْ أَيْدِيهِمْ (يعني لم يتعدوا) (المغني). أما من لم يعرف بإتقانه فعليه الضمان لما أتلفه بعدم تمكنه من حرفته.

فإذا كان غير المسلم يسعى للإتقان حفاظاً على شروط العمل وأخلاقيات المهنة وثقة العميل، فحري بالمسلم أن يتقن عمله لكل ما سبق، ومن قبل ذلك لاطلاع الله (عز وجل) عليه ومجازاته على أعماله إن خيراً فخير، وإن كانت الأخرى فنسأل الله تعالى الستر والعافية.